

القرآن الكريم في مواجهة ظاهرة الانحراف

الأستاذ عبد الغفار بن نعمة

كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية جامعة وهران

لكن انغماسها في لجج الحياة - وهذا أمر محتوم - جعلها عرضة للانحراف عن جادة الصواب فتضل الطريق إلا من ناصح هاد، ولا ينفك قارئ تاريخ من مضى أن يجد لتقلبها نماذجاً عديدة من لدن آدم وإلى يوم الناس هذا.

لقد سطع نور الإسلام في الجزيرة العربية فإذا هو بقوم انحرفت فطرتهم عن الذي يجب أن تكون عليه، وانخرمت مشدودة إلى ماضي الآباء والأجداد، إنه التقليد الذي لا يعمي الأبصار، ولكنه يعمي القلوب التي في الصدور، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿الحج: ٤٦﴾، ولقد نزل القرآن بلغة العرب وهم أهل سليقة وبيان، فكان هذا سنداً قوياً في إصلاح هذه القلوب وتقويم اعوجاج

منذ خلق الله تعالى آدم كانت الفطرة السليمة هي محكمة الجبلية التي إليها يحتكم، وقد غرست هذه الفطرة في بنيه من بعده، فهم عليها ولدوا والمطلوب منهم بحكم عدل الديانة الإلهية أن عليها يحيوا ويموتوا، وفي حديث ابن شهاب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن أخبره أن أبا هريرة قال: قال النبي ﷺ "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يقول أقرأوا"، ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِلُ إِخْلُقَ اللَّهِ ذَلِكَ الذِّبْتُ الْقَيُّمُ﴾ ﴿الروم: ٣٠﴾، وإذا كان دوام الحال من المحال فإنه من تمام العدل الإلهي أن لا تدوم نفس المرء على مستوى واحد وقد خلق الله الناس صنوفاً ومستويات، ووحدها التقوى الكفيلة بتفضيل بعضهم على بعض.

إن الأصل في الفطرة الصفاء والنقاء

الاصطلاحى حصر الانحراف في جانب معين ولكنه تعميم لكل انحياز عن الفطرة السليمة الملزمة بالطاعة والتسليم من المنظور الدينى، ومنه فيمكن القول أن: "الانحراف ضد الاستقامة التي أمر بها الله ورسوله"

أسباب الانحراف: في المقدمة العرضية التي سبقت بينا أن الأصل في الإنسان، كونه على الفطرة، وانغماسه في لجج الحياة يغير العديد من مساراته، ومن الفتن ما لا تبق ولا تذر، وليس الغرض من هذا الموضوع تأصيل تام لظاهرة الانحراف، بل هو حديث عن منهج القرآن الكريم في ردع الظاهرة، فهو كتاب هداية وإرشاد، وتوجيه وإسعاد، ولذا فإن السبب الأول والأخير والرئيس لهذه الظاهرة هو الابتعاد عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأما ما يعد من ضمن الأسباب في هذا الباب فهو تبعي بالاستلزام.

القرآن الكريم ومخاطبة النفس البشرية:

ليس أبرع من كتاب الله في مخاطبة النفس البشرية، تلك التي يتنازعها أمران: الفطرة السليمة بحكم أحقية الجبلة، والانحراف بحكم التعنت والشذوذ، وهو

فطرتها من خلال عملية التأثير التي تحدثها حروف وكلمات القرآن الكريم.

وبرغم هذا المستوى الذي بلغته اللغة القرآنية وباعتراف أهله إلا أنهم ظلوا على عنادهم في الاستجابة لنداء التقويم رغم أنه استطاع أن يخرق القلوب، ويقرع الأسماع، ويظهر العقول، بفضل أسلوبه الذي فاق جميع أساليب العرب، وذلك هو البيان بكل ما أبان، ولما كان الحق حقا اتخذ القرآن لبلوغ الغاية المرومة منهج التدرج في معالجة القضايا والمشكلات.

وفي الوقت الذي كان القرآن الكريم يخاطب أهل الجزيرة العربية ويدعوها إلى الفطرة السليمة، كان يستشهد بأقوام سلفت استدارت فطرتهم فدعاهم أنبياءهم لكنهم أبوا فكان عاقبتهم الهلاك المبين، والحق أن الحديث عن منهج القرآن - في جزء منه - هو حديث عن منهج الأنبياء فهم رسل الله وأمناءه في الأرض.

مفهوم الانحراف:

لغة: "حَرَفَ عن الشيء تحَرَّفَ حرفا وانحرف وتحَرَّفَ واحرورف: عدل: الأزهرى: إذا مال الإنسان عن شيء يقال تحَرَّفَ وانحرف واحرورف"

اصطلاحا: ليس الغرض من التعريف

الذين استجابوا للدعوة الإلهية، والذين كفروا بها والذين أصابهم الخير أو الشر جراء الاستجابة أو ما كسبت أيديهم" للنفس التي يمكن أن تتعظ بالمثل والعبرة، وغير هذا من الأساليب كثير.

ولا يمكن لزمان الناس اليوم أن يخرج لنا نفساً جديدة أغفلها القرآن الكريم، برغم اختلاف الأزمان وتباعدها، فشمولية الشريعة الإسلامية، وعالمية الخطاب القرآني، ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨، كلها أدلة دامغة لاتهام القرآن بأي نقص، ومنه فالانحراف الذي تعيشه مجتمعات اليوم في نفسياتهم وتصرفاتهم يندرج تحت نمط النفس اللوامة أو الأمانة بالسوء، مع أن فتن وآفات زمن من خلف تفوق فتن وآفات من سلف.

إن عدول النفس عن مقتضيات الشرائع السماوية على اختلاف أزمانها لهو إيدان صارخ منها بالنهاية المؤلمة التي تؤول إليها، وليس كل عدول هو انحراف، فقد تزل بالنفس القدم فتقع في الخطأ، وهذا هو المعيار الشاهد على البشرية فيها، وإلا فهي نفس ملائكية، ومن المركز في الطباع أن النفس تسمو نحو الكمال

في خطابه ومفهومه لها يقسمها إلى ثلاثة: إما مطمئنة وقد قال فيها: ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الفجر: ٢٧، وإما لوامة وقد قال فيها: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ القيامة: ٢، وإما أمارة بالسوء وقد قال فيها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ يوسف: ٥٣، وبهذه القسمة الثلاثية تنوع خطابه لها، فبلوغ درجة الطمأنينة يتطلب جهداً كبيراً يصل إلى حد ترك الحلال مخافة الوقوع في الحرام، ومرتبة اللوم والعتاب تتطلب ضميراً يقظاً متنبهاً إذا ما زلت به الأقدام، والانجذاب نحو نفس أمارة بالسوء لهو الهلاك بعينه بل هو ذاته الانحراف.

إن النفس البشرية لهي المعنية بالشرائع السماوية، وهي المنوطة بأحكام التعاليم الربانية، وتبعاً لها تلون فيها الخطاب: "فكان وعظماً مباشراً للنفس التي يمكن أن تتعظ وفيها قابلية الاستجابة للخير، وكان عن طريق الأمر والنهي للنفس السليمة التي يمكن أن تستجيب بهذا، وكان عن طريق الترغيب والترهيب في الدنيا والآخرة للنفس التي لا تستجيب إلا تحت تأثير وعد بجزاء، أو إبعاد بعقاب، وكان من طريق ضرب المثل من أقوام سابقين من

هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فُتيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» إن آيات الكتاب لا تنفك تنفصل عن واقع مشهود، وعالم محسوس، يعيشه الناس في أيامهم، وارتكاب المعاصي ليس أمراً خارقاً للعادة بحسب المنطق البشري، بل هو من الملازمات - أي المصاحبات - لا من المستلزمات، وهذا بحكم الطبيعة البشرية الناقصة المفطورة على الوقوع في الخطأ، لكن الخارج عن المعهود السليم هو الاستمرار في المعاصي واتخاذها ديدناً، وإنه وبحق خرق للسنن الكونية القاضية بالتحريم، وللسنن القانونية الحاكمة بالتجريم.

وإنه ليس عدلاً أن نسوي بين زمن وقوع الخطأ، وزمن تكرار الخطأ، فالأول لحظة ضعف تنتاب النفس البشرية، والثاني لحظة استلذاذ للمعصية وبداية تمكّن لها، وهما هي آيات الكتاب المبين تنطق بالحق عن اللحظة الأولى فتقول: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، وتشير إلى اللحظة الثانية بقبول التوبة من كل خطأ بالرجوع من الانحراف إلى الفطرة السليمة، فتقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

وهو مقصد شريف، لكنها إذا فكرت في الوصول إلى إليه فهي استحالة مطلقة تعلنها مخالفتها لمعهود الله تعالى لعباده، وهو خرق للسنن الإلهية الحاكمة بالنقص البشري من خلال الآيات القرآنية السائرة في هذا السياق على نحو: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧)، و: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (الفجر: ١٥ - ١٦)، و: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧)، فكلها وغيرها كثير تحكم بأن لا كمال في العجل، وأن لا كمال في الحكم على النفس بالإهانة، وأن لا كمال في الحكم عليها بالإساءة وغيرها، وما كان القرآن الكريم أن يطالب النفس البشرية بالكمال إنما طالبها بالاجتهاد في الأوامر والنواهي، ولا كثرة العبادة هي التي تدخل صاحبها الجنة ولكن وحده الإخلاص الباعث على ذلك، وقد قال ﷺ في الحديث المروي عن أبي هريرة ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف

منهج القرآن - في جزء منه - هو حديث عن منهج الأنبياء، لذا فإن ظاهرة الانحراف قديمة قدم النوع البشري والتاريخ على هذا خير شاهد.

نبينا القرآن الكريم أن إبليس أبى واستكبر حينما أمره الله تعالى أن يسجد لآدم فقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٣٤، إنه أول انحراف عن الطاعة والتسليم الواجبين خلقه، وإن بُعد الخبر بالقلم فهي أول معارضة في التاريخ قصها القرآن الكريم على اعتبار أن المعارضة هي إحدى مظاهر الانحراف، وفي تقديم أبى على استكبر لطيفة تكشف جزءاً من التسلط النفسي المضفي للانحراف، قال الألوسي: "قدم أبى لأنه من الأحوال الظاهرة بخلاف الاستكبار فإنه نفساني"، وفي التفريق بين التكبر والاستكبار يتضح أن: "التكبر رؤية الشخص نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع"، أي طلب أفضلية المرتبة على وجه التشبع، فهو التكبر في أقصى درجاته، ومنه فهو أقصى درجات الانحراف في قضية العجب بالنفس، وآيات الكتاب تؤيد هذا حين سأل إبليس

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ الزمر: ٥٣، وقد قال الألوسي: "التوبة أصلها الرجوع، وإذا أسندت إلى العبد كانت عبارة عن مجموع ثلاثة أمور: علم: وهو معرفة ضرر القلب، وحال: يثمره ذلك العلم، وهو تألم القلب ونسميه ندماً، وعمل يثمره الحال وهو الترك والتدارك والعزم على عدم العود"، فهي وقفات كثيرة تتملأها عين قارئ كتاب الله العزيز، وإنها لموقظات لهذا الحس الذي ينتابه التبلد فينحاز به عن طريق الصواب.

قصة الصراع بين الإيمان والانحراف في

تاريخ البشر:

أصل الإيمان عدم اقتترانه بدين الإسلام فحسب، أي أنه لا يشترط لإيمان الشخص أن يكون مسلماً، لأن الإسلام كان آخر ديانة نزلت من السماء فقد سبقتها ديانات ورسالات ودعوات جاء بها الرسل قبل النبي ﷺ، فهي قصة الإنسانية جمعاء ارتبطت بالبشر منذ الخلق الأول، "وهي معركة نفسية فكرية وجدت مع الإنسان الأول، وستستمر معركة قائمة في عقل وضمير آخر إنسان على وجه الأرض" وقد سبقت الإشارة إلى أن الحديث عن

﴿لَنْ يَنَالَكَ مِنْهُمْ﴾ الأعراف: ١٨.

مظاهر الانحراف في النفس البشرية:

هذه الدنيا امتحان للقلوب، وابتلاء في درجة الإيمان، فعلى قدر إيمان المرء يكون ابتلاؤه، لذا فقد جبلت هذه النفوس على محبة كثير من الأمور، وعلى قدر حبها لها كان فيها الامتحان، وفي هذا الأخير منزعان: إما توفيق وإما انحراف عن جادة الصواب، ففي الأول تنويج وفي الثاني العقاب، وفي حديث مضى عن أسباب الانحراف كان مدار الأمر البعد عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، أي البعد عن الشريعة الإسلامية، هذه الأخيرة التي قامت وبإجماع صريح على مقاصد خمسة وهي: الدين، النفس، العقل، النسل، المال. ومنه فإن مظاهر الانحراف لا تنفك تنفصل عن واحدة منها، وما من موقف انحراف إلا وله في إحداها أصل ودخل، فهو إما استهتار بالدين، أو هوان في النفس، أو إهمال في العقل، أو هتك في العرض، هوان في المال على أن نلتزم في هذه المساحة بالمقصد الأول نموذجاً للدراسة والتمثيل.

الاستهتار بالدين:

إن الشرائع السماوية التي جاء بها

﴿قَالَ يَإِذَايْلِسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَتَسْتَكْبِرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴿ص: ٧٥-٧٦

كيف عالج القرآن هذا النمط من الانحراف:

وحده الوعيد كان كفيلاً بالردع والتقويم حين قال تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَذْهُورًا لَنْ يَنَالَكَ مِنْهُمْ لَأَمَلًا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأعراف: ١٨، إنه إعلان وتقدير إلهي تعقب الإعلان الوارد على لسان إبليس حين توعد العباد فقال: ﴿قَالَ فِيمَا آغُوتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ الأعراف: ١٦-١٧ بيد أن بين الأمرين بون شاسع، فالقرار الإلهي قرار أخروي، والقرار الإبليسي قرار دنيوي، وشتان بين الأمرين، والحق أن بينهما في تجسيد الانحراف تلاق واشتراك، فالذين قعد لهم إبليس وأضلهم من كل الجهات هم الذين انحرفت بهم السبل وضعفت نفوسهم فكانوا له تبعاء، وهم ذاتهم الذين صدق عليهم الوعيد الإلهي حين قال فيهم:

الأعراف: ٥٩ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هود: ٢٥-٢٦ .

وقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقُوں ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الشُّعْرَاءَ: ١٠٦-١٠٨ .

ومما ورد في قصة هود قوله تعالى: ﴿وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقَوں ﴿١٢٥﴾﴾ الأعراف: ٦٥، وقال: ﴿وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ هود: ٥٠ .

وقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقَوں ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء: ١٢٤-١٢٧ .

ومما ورد في قصة صالح في سورة الأعراف الآية 73، وهود الآية 61، والشعراء الآية 142 وما بعدها، ما لا يختلف عن هذا النمط في النداء، ونفس الأمر بالنسبة لقصة شعيب وفي ذات السور الثلاث التي تمت الإشارة إليها.

الأنبياء والرسول كانت جامعة لكل ما لم يبق بعده عذر، وممانعة من أن يشوبها أي نقص، ولزمن التنزيل اعتبار دقيق فليس زمن نوح كزمن إبراهيم، ولا زمن إبراهيم كزمن موسى، ولا زمن موسى كزمن عيسى، ولا زمن عيسى كزمن نبينا محمد ﷺ، فلكل زمن أحكامه وشرائعه، وشأن الديانة المحمدية أن أفرت من شرع من سلف ما وافق شرعنا، وأبطلت ما خالفه، فهي الخاتمة الناسخة، وأجل مهمة بعث من أجلها الأنبياء هي الدعوة إلى دين الله تعالى، وكان الصراع مريرا بفعل انحراف الفطرة، بل عدم انصياعها لداعي التقويم، وفي قصص الأنبياء خير تمثيل لهذا.

نداءات الأنبياء لتقويم انحراف الدين:

وهي هنا على سبيل المثال لا الحصر، فمما ورد في قصة نوح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقَوں ﴿٢٣﴾﴾ المؤمنون: ٢٣ .

وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

إنه الانحراف النفس عن الفطرة السليمة التاريخ، وبروز لداعي المعارضة النفسي في نمط آخر لا يختلف كثيرا عن الإباء والاستكبار الإيليسي، لقد جسد التكذيب هذا النمط من الانحراف، والدين عند هؤلاء استماتة وإخلاص تامين إلى الذي قضى عليه أسلافهم فالضلال والسفاهة والشك والضعف هي مؤذونات الخدش في عبادة الآباء والأجداد، وهي حالات مرضية تتاب كل متحدث في عقيدة مات عليها من سلف.

العدل الإلهي في تعنت النفس بعد انحرافها عن الفطرة السليمة:

أما وقد رد الأقوام دعوات أنبياءهم، والنجاح في الدعوة أشار إليه القرآن الكريم حين قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ القصص: ٥٦، والأصل في الخطاب أنه محمدي التوجيه، لكن كل نبي واجه قوما بدعوة فإن له منها نصيب، وإن أخذ النفس بالعناء في سبيل تقويم نفس أخرى لهو ضرب من التضحية، ومع قصص الأنبياء تتخذ التضحية نمطا أدق وأبعد يصل إلى حد القتل كالذي حدث مع أنبياء بني إسرائيل، ومع كل هذا فإذا تعلق

إنه انحراف النفس عن الفطرة السليمة القاضية بوجوب العبادة لله وحده الذي لا شريك له، وليس اتفاق الأنبياء في قولهم: "يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" من قبيل الصدفة، ولكنها الإشارة إلى قضية الإنسانية والحقيقة الأبدية للخلق أجمع وهي: "أن دين الله واحد على مدار الأجيال وإن اختلفت الأقوام في المكان والزمان والأحوال"

شدوذ النفس البشرية عن فطرة الطاعة والتسليم:

فمع نوح كان رد قومه على نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْأَلَأُ مِنْ قَوْمِي إِنَّ لَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الأعراف: ٦٠.

ومع هود: ﴿قَالَ أَلَمْأَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي إِنَّ لَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الأعراف: ٦٦، ومع صالح: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ هود: ٦٢.

ومع شعيب: ﴿قَالَ أَلَمْأَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِي لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مِلَّةِنَا قَالَ أُولَئِكَ أَكْرِهِينَ﴾ الأعراف: ٨٨.

كان شديدا رغم تكرار محاولة تقويمهم،
والجدير بالذكر أن من أساليب الأنبياء
في الدعوة إقامة الحجة عن طريق الحوار
والمحاجة.

الانحراف في مجتمع القرآن الكريم:

القصص القرآني تاريخ أم سلفت
ذكرها القرآن الكريم لغرض الدعوة وأخذ
العبرة، لا لأجل قص التاريخ فما أبعد كتاب
الله تعالى عن هذا، ومداره بجميع ما أبان
هو الهداية، ثم إن نزوله في بيئة لا تبعد
عن سابقاتها من حيث الحاجة إلى التبصير
جعله - القصص - ضمن موضوعاته التي
يتمثل بها في عملية التبليغ. ومنه فالمقصود
بمجتمع القرآن الكريم هو المجتمع المعني
بالخطاب القرآني من زمن التنزيل وإلى
يوم الدين، فالكتاب آياته خالدة وخطابه
حركي وحيوي لا يختص بجيل دون
آخر، بل هو خطاب رب العالمين للعالمين،
وذاك هو دين الإسلام الذي أخذ نبينا ﷺ
بزمامه ليلبغه للناس أجمعين من كانت
مسيرة غيره من الأنبياء تثبिता لفوائده من
شدة ما لاقى في سبيل تقويم النفس وإقامة
الدين، قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ﴾ هود: ١٢٠ .

الأمر بالابتلاء كان التتويج في النهاية.

إن النفس إذا استبان لها الدليل
فترصدت له من تعنت وإصرار أقامت على
نفسها حجة التأديب، ولن يعذر انحرافها
بتأويل، ومن النفوس من تنساب نحو
الحق انسياها إذا استبان لها ذات الدليل،
وبين هذه وتلك محكمة العدل الإلهية، إذ
إذا أصر الداعي على دعوته، والمدعو على
تعنته يتدخل الحكم الإلهي القاضي بالعدل
الحكيم، وفي الرحلة النبوية كان الأمر مع
نوح: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ
مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ﴾ هود: ٣٦، ومع هود: ﴿وَلَكَ
عَادٌ جَحْدُوا يُبَايِنُ رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ
جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هود: ٥٩، ومع صالح: ﴿كَانَ لَمْ
يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّا نَمُودُا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا
لِئَمُودٍ﴾ هود: ٦٨، ومع شعيب: ﴿الَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف: ٩٢ .

إنه عدل من جانبيين: جانب نفس
الداعي إزاء أداء المسؤولية المنوطة به في
الدعوة والتبليغ، وجانب نفس المدعو
التي كذبت تعنتا وإصرارا، وقد تعقب كل
قصة بهلاك القوم بعد دعوتهم فانحرفهم

فمجتمع القرآن الكريم هو المجتمع الوحيد الذي ينبغي أن يستفيد من تجارب من سلف ليأخذ العبرة من الماضي باعتبار أن القرآن جمع مختلف أنواع عواقب معارضة الأقوام لأنبيائهم، فيدرك الصورة الجامعة لعاقبة الرفض بعد الطلب، وهي مزية افتقرت إليها الأمم السالفة فكل قوم إنما هو على دراية بواقعه وواقع القوم الذي سبقه، ولا يعلم بخبر القوم الذي سيأتي بعده، أما هذا المجتمع فقد وجد في كتابه قصص من ماضي، وواقع من حضر، ونبا ما هو آت، حين قص له رواية الخلود.

وإزاء الحديث عن ظاهرة الانحراف فهي لا تختلف في هذا المجتمع عن غيره ممن سبق، أما وقد جاءهم الرسول الكريم بدين جديد فالرفض ديدن النفس التي نمت في بيئة يحكمها القديم من العادات والتقاليد، والأصيل التراثي من عقيدة واتجاه، والأمر إلى هذا الحد يكاد يكون عاديا تألفه الطباع، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ ﴿المؤمنون: ٤٤﴾، فإن استبان الدليل وأقيمت الحجة وتصلبت النفس للباطل لم يبق لضابط العادة أي عمل، وهو عين الانحراف الذي سلك القرآن لعلاجها وتقويمه عند المجتمع الذي نزل فيه من خلال قص انحراف أمم سلفت، وبيان عواقبه بعد مسلك البيان.

